زنزانة المجتمع

تأليف : ميلادة خالد السوالقة

إعداد : سارة أحمد المناصير

" أهدي كتابي للحياة التي ساعدتني على النهوض رغم ثقلها عليّ، التي علمتني كيف أبدأ رغم كثرة وقوعي، وأهديه لنفسي التي كافحت بنفسها للوصول . "

ابدأ كلماتي بين طيات هذا الكتاب لأتوصل لفكرةٍ تنجينا جميعاً من قسوة العادات التي تسود بوقتنا الحاضر، أنا اتحدث هنا عن مجتمعنا الذي يسود به فكرة النصر للذكور، أنا امام مجتمع ذكوري تناسبي، فأنا لم أشمل عامة هذا المجتمع،أستأصل القليل من الأشخاص الذين انتهكوا حرمة الدين، الذين ابتعدو عن قول لله بكتابه وأحاديث الرسول التي أعطت النصر للمرأه، عزيزي القارئ أنظر وتمعن لتلك الكلمات التي ستنجيك من ألمٍ بات يأكل احشاءك، فلا تبخل وأنت تتمعن قولاً وفعلاً،

لم أكتب هذا الكتاب لأنصُر المرأه على وجهٍ كامل، أنا فقط أريد أن أصل تلك الفكرة لك لتجعل أختك وأمك وإبنتك من الناجيات بهذا المجتمع الذي يسود به فكرة "المجتمع للذكر، الإمرأه لا يمكنها تكوين نفسها بنفسها ويجب على الرجل أن يتدخل لكي تسعى لما لا تريده ولكن هو يريده. "

سلامٌ على الذين استوصوا بنساء خيراً، سلاماً على ذلك الرجل الذي كان سند لتلك المرأه فتقاوت تحت ضل عاطفته، نرجوا وبكامل إيماننا أن نتبع قول رسولِ ونتبع طيبته بالنساء.

أُمي كانت سيئة الإختيار وبالأصح في قولي أن جدي هو سيء الإختيار وسيء التعامل مع الفتيات خصوصاً ، سئ الإختيار فهو لم يختر لأمي رجلاً صالح ، رجل يقدم لها الحنيّة الكافية على الرغم من القسوة الشديدة التي عاشتها في ظِل بيت جدي.

أما أبي فهو جيد الإختيار، لقد اختار امرأة صبورة تتحمل ألم وقسوة الحياة، مثابرة، محافظة على ابنائها، حتى أنها كانت مثابرة لتناله وتتنازل عما سواه، لقد ولدتُ بين عائلة الحنيةُ للفتيات والقسوة للرجال، التعاسة للفتيات، والسعادة للرجال،

لقد ولدت في مجتمع ذكوري لا يرى الألم سوى المرأة ولا يصنع الألم سوى الرجال .

ولدتُ في بيتٍ تملؤه العنصرية الأُنثوية فبينما الفتاة منا تصارع المرض لحماية أهلها يصارع الفتى والشاب لإهانتها ، رغم أن الفتاة بيننا تعتصر داخلياً من شدة الألم إلا أنها تبعد عن ناظرها هذه الأمور وتتراكض خلف أخاها أو أباها رغم أنهم هم من صنعوا الالم داخلها.

كيف لحكاياتِ فتاة تعيش كل هذا الألم أن تعتبر ذكرًا ليس برجلٍ سنداً، بل إنه جحيم، شيطان يجري وراءها لاتستطيع أن تتحرر منه وكأنه خيالها كلما صعدت ورأت النور يلاحقها،

مابي هل أعاتبُ أمي بسوء الإختيار أم إثمّ ولادةٍ مشابهةٍ لذلك الرجل الذي إختارته ، تروي قصتي طيات ألمٍ ترافق دربي كطيفٍ ضائع ووجدني دليلاً لخطواته ، في الثمانينات كانت أمي طالبة مجتهدة محبة لدراستها ولكن ماذا؟

جدي لا يملك مقدار ذرة من الحنان فقد اختار لها الإلتزام بالمنزل، ولم يكتفي من هذا الألم، إختار لها عائله جديدة،

.عائلة لم تكن بالحسبان

تزوجت أمي من أبي وكانت بسنٍ صغير، سن الدراسه التي لا بد من فتياتِ عصري هذا يجولن بهِ، حين تزوجت أمي من أبي، في أول يوم من زواج أمي وأبي،كان أول يوم لبداياتٍ أليمة عاشتها أمي، وعاشها أولادها ، يبدأ الظلم يتغلغ في هذه العائلة، حينها تبدأ قصةٍ جافة، هنا بدأت حياتنا حيث أنجبت امي بنتين وثلاثة اولاد، اولاد يجب علي القول أنهم جحيم وشياطين .

أنا وبكل ثقةٍ أقول أن أبي لن يجد امرأه كأمي، هنا حين أقول أمي أستشعر بالأمان الذي لطالما كنت أبحث عنه , أُراقب قلباً تائهاً يجول بين أطفال أم الاكتفاء بذات، لقد اختارتنا أمي وبقيت بيننا، حقاً أنا فخورة لكونها أمي .

في الصباح الباكر أمي كانت تحضر الفطور،

أنا: صباح الخير أمي

أمي: صباح الخير حبيبتي

أنا: يالها من رائحة زكية ....ماذا تُحضرين لنا؟

أمي: أُحضر لكم البيض المقلي والجبنه والمخللات والحليب وأيضاً استيقظت في الصباح الباكر لأجهز الخبز احبتي

انا واخواتي: سلمت يداكِ أُمنا الحبيبه

استيقظ أخي أحمد باكراًعلى رغم أنه لا يذهب الى المدرسه ولا يعمل.

أحمد: صباح الخير، ها هل جهِز الفطور انا جائع جداً

!أمي: أتعجب من استيقاظك باكراً

أحمد: لا شئ لاشئ يوجد وظيفة ربما تعجبني

أنا: ولماذا لا يعجبكَ! أفضل من جلوسك هكذا بلا عمل

أحمد: هيهه أصمتي انتِ من متى واين الفتيات يتكلمن هكذا مع اخوتهن، اذهبي واحضري لي الزيتون

أنا: ومن متى الفتيات خادمات لدى ذكور

وبكل قسوة قلب، ها انا اتألم ايضاً لا مشكلة امي الكف لم يكن مؤلماً كثيراً، تفضل الزيتون .

يسير الوقت عكس ما أريده، يوماً طويل بكل صباح اتمنى مجيئ الليل لكي تقل الأيام وأكبر بسرعة، أصبح طالبة جامعةٍ مثابرة، لطالما كنت احلم ان أصبح معلمه بإرشاد نفسي، لأُعين الفتيات ع اثقال ايامهن، اصبحت دراسه كئيبه، أيامٌ تمر، الروتين متكرر

تتصاعد الأيام ولا أزال كما أنا أذهب وأتابع دروسي وأعود، أما عن أختي هنا يمكن القول أن المأساة اصابت قلبها

أختي نديم تبلغ من العمر ثمانية عشرة سنة، أنهت دراستها بدرجة الثانوية ولكن لم يحالفها الحظ لكي تعود بنجاحٍ فقد عادت بخيباتٍ ثم خيبات، وهنا قرر والدي أن يزوجها .

-بما أن نديم لم تكن قدوةً لأختها ولم تنجح بدراستها، قررت أن ازوجها لابن عمها

-ماذا؟ ولكن لماذا كيف لكَ يا أبي أن تختار لي طريقاً أنا لا أريد أن أسلكهُ .

-وكيف لكِ أن تعودي لي بخيبةٍ، ألم تعديني أن تنجحي

-لديّ فرص سوف أنجو بالمره الثانية

-لايمكنني أن أقدم لك فرصاً أكثر سوف تتزوجين إبن عمك، رجلاً عن جدٍ، لديه منزل ولديه وظيفة ثابتة، هل تريدين أن ترفضي هذا من أجل ورقةِ مكتوب عليها ناجحة؟

-أرجوك ربما هو ليس خيراً لي فأنا لا أريد !

-وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيراً لكم .

وكأن أبي جعل ما حدث لأختي حجةً ليزوجها؟

مابالهم هل ينظرون للدين من منظورهم فقط؟ ألم يقرأ أن القرأن وأن رسول أمر بأن لاتجبروا بناتكم على الزواج!!

حتى لو كان إبن العم فليس دائماً القريب أولى من البعيد .

أنا افتقد ذلك الشعور الذي يُعيد لي الطمأنينة ، أمسك يداي وحدي وألعب بشعر نفسي وأتمتم لي، لا بأس سوف تكونين كما تريدين , لم ينظر هذا وذاك لأعماق الدين، لم يسندوا أقوالهم لأقوال ربي ، هم يتمسكون بعاداتٍ أجهدت قلب المرأة، ماكثين بأقوال الأولين .

عزيزتي المرأه إنهضي بذاك الجسد الليّن وخاصمي ذاك الثقيل ، قابليه بساحة المعركه وحاربيه بعلمك وليين كلماتك، إرفعي سيف الدين وقاتلي تلكَ العادات التي قللت من شأنك .

أردد تلك الكلمات لكي أعود للنهوض مرةً أخرى ولكي لا أتأثر بما حدث لأختي، أفتح الكتاب وأعودَ لدروسي، أعود لشهادةٍ قريبة تنجيني من مرارةِ تلك

العادات، يزداد وضع بيتنا سوءاً بين حينٍ وحين، يزدادُ أبي غضباً لاتزال تلك الأعراف تمكثُ في بيوت أبائنا .

هل في تحقيق الأهداف حرام أم أنهُ عيب، هل تعلم المرأه لاجواز به؟ ألم تكن أم المؤمنيين رضي الله عنها عالمه، حيثُ كانت تنقل علمَ الرسول للكثير من الناس، كانت تنقله للنساء والرجال، لايمكن لأحد أن يقارن فلسفة الحياة بتلك الأعراف، هنا تأتي الفلسفة ناصرةً للمرأه أما الأعراف جاحدةً لا محال لها، أنا أحاول النجاة من كل تلك التدفقات لأصبح ما أريد، فأحقق هذا وذاك، تسير دراستي كما أخطط لها ، أتعلم فأعود لأراجع ما كنت أتعلمه، أرسم تلك الخطة أمامي من مزج خيالي ، رغم كُلّ ما مررتَ به إلا أنني اقوام , صعوبة الحياة وملذاتها ، فأنا فتاة تهوى النجاح والإنتصار.

ولدت في عائلة لم تخذلني يوماً رغم قساوتها بل علمتني كيف أُكوّن نفسي بنفسي، أحارب شقاء الطريق .

أخي علي عمره عشر سنين ، رغم صغره إلا أن طابع العصبية أورثها لهُ أبي، لم يكن سيئاً بل كان سريع الغضب، هو الوحيد الذي كان يقف بجانبي في الوقت الذي كان الجميع ضدي ، كان يتحمل عبء قساوة البيت الذي أسكنه، كان من محبي القراءة ، رغم صغر سنه ، كان محباً للقراءة ، كان يغلق باب غرفته لينعم بالهدوء ثم يشرع بالقراءة ، يجعل الكلمات تتحاور داخل عقله لترقد الحروف بين عيناه ، في ذاك اليوم الذي كان أبي يريد من أختي الزواج من ابن عمي ، كان أخي هو الوحيد الذي وقف بجانبها على رغم من أن باقي إخوتي كانوا ضدها ، وقف اخي عليّ أمام أبي وقال، ماذا لو؟ كان ابن عمي لا يليق لها، او أهانها أو ضربها أو أعادها لكَ بكومة أطفال، هل أنت راضي بتكرار الزمان؟

أم تريد من الزمان أن يكررنا، غضب والدي فإلا بصفعةٍ أوقعت علي أرضاً كانت شديدة ومؤلمة، نهض علي نظر لوالدي نظرةً حادةً ثم دخل الى غرفته،

. أظن أنه كان يبكي

ماذا عن أختي نديم؟

ماذا حصل لها؟

هل هي على مايرام؟

تم عقد قران أختي من ابن عمي سعيد وهذا اليوم الثاني من خطبتهما، كان سعيد يأتي لزيرتنا كل يوم ، لقد كان يعشق أختي ، ربما جذبته طيبة قلبها وحنيّتها، هل سيبقى كما هو للأبد؟

أتمنى....

أما عن أخي الثالث الذي لم أُخبركم به فهو يدعى محمد، فهو يبلغ من العمر الثلاثون، لم يكن بحالة جيده كان دائما يسبب لنا مشاكل آليمة يدخل فيوقع غضبه على كل البيت ، والداي وأخوتي .

كان كبير بالسن ويجب أن يكون متزوج لكنه حكم على نفسه أن يكون كما هو الأن ، عائلة متفككة لا محال ، أنظر لكل الجوانب فأجد شمساً تغيب لقد غابت قبل أن تشرق، ربما سيتحسن وضعنا، أختي تتزوج من سعيد،

وأنا،

ماذا انا؟

هل سيصبح بي الحال كما هو بنديم؟

أنا أتقطع اشلاءً، لم يكن يوما حلمي رجل ولا منزل ولا أطفال

كان حلمي بسيطاً رقيقاً فقط أن أكون معلمة إرشاد نفسيّ أجول بين طالباتي ، و سوف يتحقق،

أتمنى....

باتت الأمور كما هي لم يتغيّر بنا الحال، نديم مع سعيد، أحمد عاطلا عن العمل، وعلي يعشق القرأه ويكره صلابة أهلي، ومحمد لم يتزوج، تسير الأمور كما لم يخطط لها أحد لم تكن إيرادتي هكذا فلم أكن أريد أنا انضج بين عائلة كهذه، أنا بأمس الحاجة لأبٍ يعود حاملاً لنا الهداية وأخٍ يخاف على غرةِ شعرنا ، اما أنا اكمل دراستي،

تسير الأيام وتسير،هل سيصبح الحال مستحباً؟

لم أنظر لذاك التغيّر الذي طرأ حياتنا ، محمد ينوي أن يتزوج؟

الحمدلله الذي أكمل دين أخي فختارَ لهُ أن يكوّن أسرة،

والحال هو ليس كحال الآخرين باتت العائلة وكأنها ميدان حرب وساحة للمعارك ، فقط كل ما يجول بالمنزل أصوات صريخٍ والمشاكل فقط ، واختي نديم تزوجت لكن زواجها باء بالفشل الذريع ، عانت من الضرب والقسوة رغم

أنه ابن عمي، لم تكن تعيش كإمرأة متزوجة بل كالعبدة الخادمة تطلقت وعادت لمنزلنا، لكنها لم تكف عن سماع الكلام ، لكونها مطلقة، لأنها لم تعتني بزوجها رغم أنه كان يضربها !!

أهكذا دينكم ؟

هكذا وصاكم نبيكم الكريم ؟

لم تكونوا كالرجال بل كنتم أشباه ذكور قاسيين

وها هي سَنتي الأخيرة ، التي تمزقتُ أشلاءًا لاصل لهذه السنة ، أتذكر أحداث حياتي عندما كنت أحاول الوصول،

البكاء ليلاً

العتاب نهاراً،

الأرواح حائرةً ،

والعيون تتلاشى من شدّة البكاء، يروق لي كل هذا مقابل وصولي لأخر سنةٍ متعبة، سأصل رغم قسوة الظروف ورغم كل شئ .

درست وبكل جهد ، سهرتُ الليالي ودموعي تسبقني ، انهرتُ لكنني لم استسلم، تعبت وبكيت بكاء لدرجة أنني مع كل دمعة كنت احفظ جملة ، اتخيل تلك الوقفة على منبر العلم وأقول سأقف هناك يوماً ما .

وأخيراً فعلتها نجحت وها أنا أدرس في التخصص الذي لطالما حلمت به وحلمت أنني سأحققه ، بدأت امنياتي بالتحقق وذلك يعود لي فقط ، انا من قَويتُ نفسي وأتعبت ذاتي لأصل للذي أريده.

سأحافظ على كل شخصٍ بات ينهار أمام عيناي، سأحمي الأطفال وأجعلهم بين أجنحتي الرقيقة، نعم سأحققُ كل هذا .

لا يزال وضع أسرتي كما هو والحال يزداد

ابي تزوج على امي

تزوج على المرأة التي صبرت عليه وعلى تعبه كثيراً تحملته لدرجة أنها لم تكن تتكلم معه وكان يفرض نفسه علينا جميعاً تزوج عليها .

كانت كالصدمة لنا لم يعد هناك أي احترام لأحد بالمنزل

تزوج ابي وجلبها لمنزلنا رغماً عنا

وفي يوم من الايام دخل ابي وهو يصرخ

ابي : من انتم هل انتم حيوانات وأنتِ؟ ينظر إلى أمي

امي : ما بك ما الذي حصل

ابي : وتقولين ما الذي حصل بكل وقاحة

لماذا ازعجتم زوجتي لماذا صرختم بها وأخرجتوها من هنا بالقوة

أنا : أبي كاذبة أنها كاذبة

وهنا صفعني صفعة قوية،

بدأت بالبكاء وركضت على غرفتي ولا زالت أصوات الصراخ تأتي من الخارج

أبي وأخوتي يصرخون بأعلى أصواتهم

وانتهت بذهاب ابي لإرضاء زوجته

ونحن بقينا حُزانى على هذه المعاملة،

استمرت الأيام على هذا الحال

زوجته تكذب وهو يصدقها ويأتي ليصرخ بنا وفي كل مرة بدأنا نسايره اعتدنا على هذا السيناريو الذي يعاد كثيراً

تزوج اخي محمد من أجمل امرأة نراها في هذا الكوكب

كانت نِعم الزوجة، أحببناها جداً وهي أحبتنا

لكنها لم تسلم من مضايقات زوجة أبي

كانت لطيفة التعامل، راقية بأسلوبها، كانت تحاول جاهدةً،

لتغيّر أوضاعنا، كانت دائما توصي أخي بنا،

لدرجة أصبح الأخ الحنون ورائع في التعامل، ثم رزقه ربي بأجمل فتاةٍ على هذا الكوكب، لقد تربت بيننا ولم نعطها سوا الحب والحنان .

بعد مرور ثلاثة سنوات - -

محمد : هيا عزيزتي سوف نتأخر

سمية : حسناً ها أنا قادمة

محمد : جميلتي الصغيرة اين هي

لمى : ابي أنني هنا

محمد : هيا حبيبتي لنركب

سمية : هيا

محمد : أتعلمين يا سمية اليوم سيكون يوم تاريخي ولن ننساه

سمية : قل هيا ما هي المفاجئة

محمد : لن اقول حتى نصل

اقترب من سمية وقبلها على جبهتها

سمية : محمد محمد الطريق لا محمددد

بات الليل يزداد دكانةً، والأشخاص يلتفون حول نقطة في مكانٍ ما ، صرخات تضرب أرواحنا، وأجسدنا تخدرت من الألم، خبرٌ زاد قلوبنا تعاسةً، زاد أرواحنا ألماً .

بكل ضيقة قلبٍ وصرخةٍ كاتمة أقول:

انتقلوا إلى رحمة الله تعالى محمد وزوجته سمية إثر حادث مروع حيث فقدا حياتهما وكانت معهم ابنتهم لمى التي تعرضت لصدمة كبيرة .

إن لله وإن إليه راجعون

لا يعلم بوجع الفقد الا من فقد اعز عزيز له

كان شعور لا يوصف أبداً فقد كانت العيون كالشلال، وظيفتها انهمار الدموع مساءً وصباحاً

لمى أصبحت ابنة لي بل لو كان لدي ابنة لن تكن بمكانها

ربيتها وتعبت عليها

لم تكن تنطق بحرف واحد منذ تلك الحادثة التي سحقت ارواحنا

أصيبت بصدمة الموت والفقد بآنٍ واحد .

اليوم كان يوم تخرجي

لمى كانت فرحة جداً لو لم تنطق بحرف لكن هذا يظهر على وجهها الجميل

أتمت اليوم السبع سنين من عمرها

وهي تعد من أوئل صفها

كانت بالمدرسة نفسها التي كنت بها، كانن المعلمات يحسدنني ع ذكائها وأسلوبها الليّن ، تشبه عمتها شبهاً كبيراً لا اعلم اذا كان الأمر هذا بسبب قربي منها أو وراثياً لكنها ابنتي حقاً .

صباح الخير أمي

الأم : صباح الخير عزيزتي

ما بكِ أُمي

الام : لا شيء

حقاً هيا قولي

الام : كالعادة زوجة والدكِ تفتعل المشاكل

مللت من تصرفاتها الحمقاء اقسم

الام : هيا لا تهتمي الان

والدكِ سوف يذهب عند صديق له

صديق ؟!

قال هكذا في اخر مرة وانظري ماذا جلب معه

الام : لا حقاً هذه المرة .... هيا لنعد الافطار له

حسناً ....

الاب : لم يجهز الإفطار حتى الآن

ماذا بكم هيا بسرعة

الام : بلى جاهز سوف آتي به بالحال

الاب : أسرعي!

وكأننا خدم عنده ، لتأتي زوجته وتحضر له الافطار.

خرج أبي في طريقه لصديقه ...

بعد أربعة ساعات يرن هاتف أمي

الممرضة : مرحبا

الام : أهلا من معي

الممرضة : معكِ رحمة من مشفى السراج

الام وقلبها على يدها : نعم نعم

الممرضة : أنتِ زوجة المدعو عليه ب ابو محمد

الام : نعم

الممرضة : نريدكِ أن تأتي للمشفى زوجك قد تعرض لحادث سير عنيف جداً ونريد مرافق له حالاً

باتت هنا دقاتٍ تضج في منزلنا ، هدوءٍ ساكن لأمي، تنظر لنا كأن صعقةً كهربائية أصابتها،

نحن نصرخ مابكِ لكن لا فائدة،

سقطت أمي أرضاً فصرخت وقالت محمد،

ماذا؟ محمد مابك لقد توفي،

استرجعت امي ذكرياتاً أليمة فحادث سير أبي ذكرها بأخي

كأنه أصابها الذعر من تكرار ما حصل،

حملنا أمي ووضعنها على كرسي،

شربت أمي الماء،

فتنهدت

وقالت: والدكم بالمستشفى إثر حادثٍ مروع،

سقطت كأس الماء من يدي ، أنا ونديم ننظر لبعضنا البعض ....

خرج عليٌّ من الغرفة فوجدنا بحالٍ سيئ،

خرجنا مسرعين إلى المستشفى،

أنا ونديم وأمي وعلي،

وصلنا المستشفى وتوجهنا لقسم الرجال،

الآن أبي قد أصاب بالشلل المؤقت لا نعلم متى يعود لحالته القديمة قال الطبيب من الممكن أن يبقى هكذا طوال الحياة ومن الممكن ب أي لحظة يبدأ باسترجاع حياته، كلنا نلتف حول أبي أمي عند رأسه، ونديم ماسكةً يده،

وأنا يده الأخرى وعلي واقفٌ أمامنا،

الدموع تذرف وأرواحنا تنهار،

أبي كان نائماً لم يشعر بأحد،

استيقظ والدي وكلنا ننظر إليه والدموع بأعيننا،

عند استيقاظه همس بإسم زوجته،

نظرتُ لأمي وهي تسرح به،

كأن قلبها أوجعها، وكأنه لم يبالي لمشقتها،

بقينا صامتين لم يتفوه أحد،

نظرَ أبي لنا، وقال أين زوجتي، بقينا صامتين فصرخ بصوتٍ عالي أين زوجتي،

نظرت له أمي وقالت بأنها لم تأتي،

أبي: أعلم أنتم لم تقوموا بإحضارها معكم،

أمي: لا بل هي عند سماع خبر الحادث دخلت فأغلقت الباب بإحكام، نحن لم ننتبه لخوفنا عليك،

بقي أبي بالمستشفى لأيامٍ عديدة ونحن نناوب لمرافقتهِ،

أما عن زوجته فهي لم تزره بعد، فقد مضى إسبوع دون أيّ خبرٍ عنها ، أبي يتصل بها ولكن لا استجابة .

أبي أصابه الإكتئاب ليس بسبب شلل قدميه ، بل خوفاً على زوجته ، أخي أحمد ذهب لبيت أهلها فوجدها هناك عند أهلها....

أحمد: أظن الخبر لم يصل لكِ بعد، سوف أخبركِ الأن، أبي بالمستشفى إثرَ حادث، وهو يسأل عنكِ منذ مدة أتمنى أن تأتي، ليطمئن قلبه،

عاد أخي وخلال ساعه أتت الى المستشفى،

زوجة أبي : الحمدلله على سلامتك عزيزي ,كيف حالك..

أبي : بخير ، لماذا لم تأتي لزيارتي في المشفى

زوجة أبي : لم يكن لدي من الوقت الكثير

ابي : لم يكن قلتي لي

أنتِ من ستعتني بي هنا في المنزل

زوجة أبي : لا ، لن أقوم بذلك ، تحملتك وانت مُشافى وهل سأتحملك وأرعاك هكذا ؟!

ابي : أطلقك يا فتاة تهذبي

زوجة أبي : أتطلق منك بكل تأكيد ، هل ستبقى هكذا طوال حياتك سوف تخسر كل شيء وأنا سأبتعد عنك...

الوضعُ تغيّر جداً ، ابي كان كالماء الراكد، هادئاً، اكثر الأوقات حين أنظر إليه أجدهُ ضائع ينظر إلى الحائط دون كلل، لا يفارق تخته وذلك بسبب عجز قدميه، لا أنكر أنني إشتقت لصراخ أبي، أشتقت لغضبه،

ولصوته، أفتقد كل هذا رغم أن الهدوءَ كان من أكبر الأمنيات لديّ، ولكن ليس هكذا،

لم أتمنى لأبي العجز ولم أتمنى تخلي زوجته عنه، رغم أنني تمنيت أن يستيقظ أبي من ذلك الجنون وأن يعود لأمي ولا ينظرَ لغيرها،

ولكن لم أتمنى أن يكون التخلي بهذه الطريقة،

أربعون ألماً باليوم وخمسون حسرة، دموعاً تنهمر طيلة الليل،

أمي، أبي، نحن، كلٌّ منا يشعر بثقلَ همومه،

أما أحمد فقط ذهب رحلةً سياحية الى مصر،

لكي يحسن نفسيته،

نفسيته؟ يا إلهي .

كادت الأرواح أن تخرج من أجسادنا لولا وجود الإيمان بقلوبنا،

الحال لم يكن سار، ولم يرضى بهِ أحد،

هنا قررت أمي أن تعالج أبي حتى لو دفعت ثمنه بدمها،

لم تستطع رؤية أبي هكذا،

لقد قتلها الحزن عليه،

أمي تلكَ الإمرأه التي لا تحفر الحقد بقلبها، بل هي تحبنا جميعاً،

بلا استثناء،

أبي عاجزاً تماماً، وأنا عند عودتي من المدرسه، أقوم بتدريس لمى

والإهتمام بها، نديم ترافق أبي في أعماق حزنه

وأمي تعتني به،

لم نعد كما كنا، تغيّر بنا الحال،

أصبحنا عائلة هادئة مليئة بالحسرات،

على رغم من أننا كنا عائلة مزعجة وملئية بالألام،

عاد أحمد من رحلته التي دامت أسبوعاً كامل، عاد وهو فَرِح كأن لم يكن هناك حسراتٍ مِلىء المنزل،

عاد وعادت ضجة البيت، ضجة البيت التي تحسرتُ على مفارقتها، ولكن عند عجز والدي ، عاد أحمد بصلابةٍ أكثر، حيث أنه أصبح الأشد عند عجز أبي .

كان يرى نفسه أنه هو الأن المسؤول عن المنزل كليّاً،

ومن قرارات أحمد التي أدخلت لقلبي ضجةً تجعل روحي تعتصر، وعيوني تنهمر بالدموع، أن أتخلى عن وظيفتي، بحجة أنني فتاة، والفتيات لا يعملن ، أصبحت أصوات عقلي تتراكض ، كيف علي التخلي؟

أنا هي التي تحدت تلكَ السنوات لأصل لهذه المرحلة،

كيف لي أن اتقبل هذا القرار بهدوء ، تفجر قلبي من الداخل ولم أعد أتحمل، فصرخت تلك الصرخات المتعاقبة ، لايستطيع أحد أن يجعلني أتخلى عن حلمي ولا عن مشقتي، أنتَ تخرج متى شئت، تدخل، تسافر، لا يتسلط أحداً عليك ، لهذا ليس عليك أن تتدخل،

أصبح جسدي مزرقاً من شدة الألم بسبب ضربه لي،

كأنني جثةً هامدة لا أشعر، روحي تتألم قبل جسدي،

أصبحت أبكي من شدة ألم قلبي وليس ألم جسدي،

كيف لسنواتٍ من المشقة يُذهبها أخي بفعلتهِ،

أكاد أن أُجن بل أكاد أن أسقط على وجهي من شدة الدوارالذي سببه التفكير، تقاعسهُ جداً بعد ما حصل لي، أصبحت أستيقظ صباحاً ، أنظر للناس كيف يذهبون إلى عملهم ودراستهم بهدوء وأنا أتقطع خلف النافذة،

أصبحت وظيفتي بالبيت هي اهتمام بلمى وخدمة والدي والتنظيف ، لم يعد لي مهام ولا وظيفة أهربُ اليها من ضجيج منزلي ، أصبحت أجلس بصمت وأعمل بصمت، أصبح التوّه يصيبني ، كدت أجن لا بل جننتُ فعلاً، مرت الأيام فقررت أن أبث همومي لوالدي، ربما يعود قوياً فيحن علينا ، أصبحت كلما أجلس بجواره، أتكلم لهُ وأشكي فأبكي ، كان أبي لايستجيب لي، يناظر الأرض دون تكلم، أبي مازال لايتكلم، لا أعلم!

هل كل مايحدث لهُ من أجل إمرأة، لم أرى والدي يوماً يعتصر الألم بهدوء،

ولكن لماذا؟

لماذا لم يقدم لأمي الحب الذي قدمه لزوجته تلك،

أصبحت أتقطع أكثر فأكثر فأتفوه لأبي أكثر،

أصبحت ألومهُ بكل شئ،

- هل بقيَ شي لم تفعلهُ لنا؟

تألمنا جداً بسببك يا أبي، أتعلم حالَ نديم بعدَ طلاقها؟ أتعلم حالي أنا الأن، أو حسراتُ أمي بعد زواجك عليها، ولن أنسى قسوة أحمد التي ازدادت بعد عجزك، توقعت أن تزيد حنيته، لم أتوقع الهيمنة منه، ولن أنسى علي الذي أصبح يخرج ليجد الهدوء خارجاً ليكمل القراءةوالكتابة،

وعند شكواتي وآلامي، ذرفت من عين والدي دمعة دون تكلم، ثمّ تبعتها دموع، كأنه نادماً على كل شئ،

- لا تبكي يا أبي لقد حصل ما حصل لن تغيّر دموعك شي،

نحن النساء منحوسات الحظ، لو كان المجتمع من دوننا،

لفرحتم وارتحتم من همومنا ومشاكلنا، لو لم نكن هنا،

لكنت رجلاً حراً بلا إمرأة وبلا حزن، أصبحت ألوم نفسي , أصبحت أعاتب نفسي، لهذه الدرجة المرأة ملعونة بالنسبةِ للرجل؟

كدت أن أصدق هذا لا بل صدقت ووثقت من هذا،

أصبحت الأفكار تذهب وتعود لي، أصبحت أعاتب أجساداً ضعيفة، فقد تآكلَ جسدي بسبب الهموم، سوادٌ تحت عيناي، حبوبٌ تملأُ وجهي، إرهاقاً بجسدي،

حتى أصبحت أُزيل حبوب وجهي بأظافري، مما جعل وجهي ممزقاً كلياً ، لم أعُد أكترث لشئ، لم يعد دافعي يعنيني، أصبحتُ أكرهُ حلمي، وأصبحت أكره مستقبلي،

أصبحت أُمٌّ بلا زوج، أستيقظ صباحاً لأجهز لمى للمدرسة ، أنظف المنزل، ثم انتظر عودة لمى، وأحضر لها طعام،

أدرِسها وأعتني بها، ثمّ أساعد أمي للإعتناء بوالدي،

أصبحت أسمع سموم أحمد ولكني لا أكترث لقوله،

أصبحت لامبالية، غير مكترثة .

بقيَ الحال كما هو، أمي تحاول جعلَ أبي يتكلم، رغم أنّ الطبيب , لم يذكر عجز لسانه فلقد قال أنهُ بصحى جيدة، فقد العجز بقدميه ، لا أعلم مابال أبي، هنا أمي أخرجتْ قراراً، قرار مهيناً لنا،

- أمي؟ مابك هل جننتِ كيف تريدين ذهاب لزوجة أبي لكي تعود.

- تعود بحسراتٍ أقل، فوضع والدكِ يقطعني إرباً،

- أتوسل لكِ يا أمي، لقد إكتفيت من الألم، سوف تعود ولكن عودتها،

سوف يكون لإهانتنا ، سوف نكون خادمات،

لا أصدق كيف تفكرين،

- لا يهم، ربما يُشفى والدكِ،

- سيُشفى؟ وسنجنُ نحن، لا أصدق كيف ستعيدين لنا الإهانة .

حاولت تكراراً لكي تعود أمي لوعيها، لكن مصرة على فعلٍ سيقتلنا .

هُنا أثبت لي الوقت بأن الحزين لن يفرح يوماً، ولن يتغير حال المتألم ، لم أعد أستاء من ذلك التفكير، أليس الأفلام والمسلسلات دائماً نهايتها أن النصر للمظلوم، هنا إكتشفت أن لا حقيقة لذلك، لن ينتصر المظلوم .

بل سيعيش بقية حياته يلملم خيباته، صافناً بقصص الماضي، هنا علمت لوهلةٍ أن معانقة الجدران كفيلة لتنجيني من حضن أهلي اللّين، فلم أشعر بالراحةِ يوماً، لم يأتي والدي ليحتضن جسدي، لم يقبلني يوماً، لم يتطمن ماذا

لو كنت بحاجةِ شيءٍ أم لا، قسوة تلوا قسوة، نحن الجنس الضعيف الذي نحتاج لمن نتكئ عليه،

فيتكؤون علينا بثقل أجسادهم ، هنا أيقنت بأننا نستطيع بناء حياتنا بأرواحنا التائهة وأجسادنا الليّنة،لا حاجة لنا لأحد .

ابدأ كلماتي بين طيات هذا الكتاب لأتوصل لفكرةٍ تنجينا جميعاً من قسوة العادات التي تسود بوقتنا الحاضر، أنا اتحدث هنا عن مجتمعنا الذي يسود به فكرة النصر للذكور، أنا امام مجتمع ذكوري تناسبي، فأنا لم أشمل عامة هذا المجتمع،أستأصل القليل من الأشخاص الذين انتهكوا حرمة الدين، الذين ابتعدو عن قول لله بكتابه وأحاديث الرسول التي أعطت النصر للمرأه، عزيزي القارئ أنظر وتمعن لتلك الكلمات التي ستنجيك من ألمٍ بات يأكل احشاءك، فلا تبخل وأنت تتمعن قولاً وفعلاً

لم أكتب هذا الكتاب لأنصُر المرأه على وجهٍ كامل، أنا فقط أريد أن أوصل تلك الفكرة لك لتجعل أختك وأمك وإبنتك من الناجيات بهذا المجتمع الذي يسود به فكرة "المجتمع للذكر، الإمرأه لا يمكنها تكوين نفسها بنفسها ويجب على الرجل أن يتدخل لكي تسعى لما لا تريده ولكن هو يريده"

سلامٌ على الذين استوصوا بالنساء خيراً، سلاماً على ذلك الرجل الذي كان سند لتلك المرأه فتقاوت تحت ضل عاطفته، نرجوا وبكامل إيماننا أن نتبع قول رسولِ ونتبع طيبته بالنساء.

قد مرت الأيام بي وأنا في المنزل متكأة على أثقال وحمل عائلتي، أما أمي تحاول إعادة أبي لحالته الأولى، يوماً بعد يوم،

نستاء جداً،

ذهبت أمي للمرة العاشرة لمنزل زوجة أبي لتقنعها بالعودة،

وهنا، قررت العودة، ولكن بشرط،

الشرط الأول أن لايتدخل بها أحد، وأنها ليست مسؤولة بالتنظيف لوالدي،

ومن هذه الشروط المتعبة، لكن أمي قبلت،

قبلت لكونها المرأة التي تحاول إحتضان عائلتها بمنزل مريح،

عادت زوجة أبي وهي مليئة بالغرورِ والكبرياء،

لايهمها أحد، لم يعجبه أحد بالمنزل، فلقد كانت امرأة متسلطة،

لكن لا بأس سوف نحاول التعايش معها،

هنا عادت المرأة العنيدة المتسلطة،

حين دخلت المنزل وذهبت لغرفة أبي كان هناك شئً غريب،

فلقد نظر لها أبي نظرة المصدوم ولكن مليئة بالكره والبؤس،

وهي نظرت له بضحكةٍ خبيثةٍ،

أصبحت العائلة كلها مستاءة منها حتى أخي أحمد،

لكننا نحاول أن نتعايش مع الأمر،

نتعايش على قبح الأيام معها، ومرارة العيش،

لم أصدق ماذا يحصل، أمي تنحاز لأوامر زوجة أبي،

لم أطيق الوضع، لن أجعل أمي تستمر بهذا الوضع، حتى لو لم يُشفى أبي،

هنا قررت أن أخرجها من المنزل بأي طريقةٍ كانت، حتى لو لم يرضى أحد،

أصبحت أبحث عن افكارٍ تُذهب بها هذه المرأة،

أحاول وأفكر وأبحثُ عن طرقٍ ينجي أمي، وينجينا .

كانت الأيامُ تمر، تمرُ بسرعةٍ هائلة وكأن الحياة ستنتهي،

أنا تلك الفتاة التي عاشت كثيراً ليس بالعمر بل بروحٍ مُرهقة،

من شدّة الألم، رغم ضعف قلبي إلا أنني سأبقى صامدة،

ورغم الثقل والحسرات،

أما بالنسبة لزوجة أبي هنا قررت إخراجها من المنزل لا بل إخراجها

من حياتنا، كان الإتفاق بيني وبين نديم ان نحاول إخراجها قدر الإمكان،

أصعب شعور حين تجد أمك قليلة الحيلة، بائسةُ الوجه، تنظر لعثرات الأيام، ومن وجهةٍ أخرى ترى إمرأة متسلطة تحاول الهيمنة على منزل بأكمله،

لم تكن تسيطر فحسب فقط تعاملت بالمنزل وكأنه بيتها،

كانت دائما تجلب إخوتها لزيارتها، يوماً بعد يوم،

لم يكن أحمد راضٍ ولا علي، كانا دائما يتشاجران معها،

فيخرجا على إخوتها فيبدأ الشجار بينهم،

كانوا كأختهم سيئين متسلطين، إلا واحدٌ منهم،

كان يبعتد حين يرى غضب أخي فيحاول تهدأت الأمور،

كان راقي التعامل، سلسل، رفيق إن وقع لا يميل،

وإن صمدتَ تجد نفسك صامدا بين يديه، ألم يولد من نفس البطن؟

ألم يتربى تحت سقفٍ واحد؟

هنا أيقنت أن لا علاقة لتربية الأطفال، بل ينبت الأخلاق بالفطرة،

إما أن يجعل العائلة تسيطر عليه أو يكن بالفطرةِ قوياً فلا تغره العادات،

أصبحتُ أراقبهُ يوماً تلو الأخر، أراقب تصرفاته، وأسلوبه،

كنت أتجسس على أخباره، كيف لي أن أقترب أكثر، شعرتُ بالخوف،

رغم كل ذالك هو أخ امرأة تخاصم أمي بنفس الرجل، ربما يكون سلساً،

لكن بالحقيقة إن تمايلت لهُ أذاني، أصبحتُ أتردد، أذهب بعيداً ثمّ يقتلني الفضول، فأعود لأراقب أخباره،

كيف لي أن أعرف حاله؟

وكيف لي أن أقترب منه؟

كان قلبي يخفق في كل مرةٍ يأتي بها لمنزلنا .

أنا التي كانت تحاول إخراج زوجة أبيها، الأن أنا أحاول إبقاءها،

لم أتوقع يوماً أن أكون بهذه الأنانية، أمي تتألم لكنني لا أستطيع فعل شئ ، أخاف إن فعلت شيء يذهب،

حتى نديم كانت تتعجب مني،

كيف هذا؟

لماذا هكذا تغيرتي ،

لم أخبرها لأنني خفت من ردة فعلها ، فإذا تكلمت لربما تكرهني،

وتسيئ معاملتها معي،

جعلتُ هذا الرجل سراً بيني وبين نفسي فلا يعلم بهِ سوا ذاتي ،

لم أتوقع يوماً أن أقع بحب ذكرٍ،

لطالما كرهتهم حتى الموت فأبي وإخوتي لم يعطوني المجال لكي أنظر لأي رَجُل ،

عشقت تلك الأعيُن والإبتسامه المغممة، عشقت كل مافيه،

لم أكترث لوهلة تلك الإمرأة الساذجة بل لأخاها الطيف،

أخبرتني عيناه بأن لا مجال لعشقي لكن قلبي طغى ،

أصبحت العائلة متداركة لما يحدث ، فلقد أخذت العادة تدخل أرواحنا ،

إعتدنا على وجود زوجة أبي وهيمنتها ،

أما بالنسبةِ لأبي ، فهو لم يُشفى بعد ، لايزال يحتضن الفراش ، أبي لم يعد يتكلم فالصمت أكل جسده،

كنت أعلم أنهُ يبكي ليلاً وذلك لوجود سوادٍ وتنفخ تحت عيناه،

هل يشعر بالندم؟

مابه لا يتفوه بكلمة ،

أُطاردُ الحياة لكن الحياة تسبقني

لا أدري ما حلول العالم لمشكلتي لكنني سوف أبكي

أبكي لكوني فتاة لا وجود لسعادتها،

هي لن تنجو من ضجيج كونها ،

أصبحت أتعمق بقلبي ولا أستطيع نوم ليلاً ،

لقد أبحرتُ في عيناه فلم أَستفق من لقياه ،

ياله من متعجرف جميل،

أصبحت الأصوات بين أهلي يتحدثون بأمر نديم، أبي كان مفعماً بسعادة لأن شخصاً راكزاً كهاشم سيُناسب عائلتنا،

أحمد: من بين كل إخوة زوجك يا أبي كان هاشم أفضلهم

زوجة أبي: مابهم إخوتي مابهم؟ وأنا أريد الذهاب غداً لبيت أهلي،

لن أسمح بهذا الزواج، كيف لأخي أن يطلب يد نديم،

نديم؟ لم يجد غيرها .

نديم: ما بي أنا ها؟ يكفي أني حسنة الوجه .

أصبحت الأصوات بين أهلي يتحدثون بأمر نديم، أبي كان مفعماً بسعادة لأن شخصاً راكزاً كهاشم سيُناسب عائلتنا،

أحمد: من بين كل إخوة زوجك يا أبي كان هاشم أفضلهم .

زوجة أبي: مابهم إخوتي مابهم؟ وأنا أريد الذهاب غداً لبيت أهلي،

لن أسمح بهذا الزواج، كيف لأخي أن يطلب يد نديم،

نديم؟ لم يجد غيرها .

نديم: ما بي أنا ها؟ يكفي أني حسنة الوجه .

زوجة أبي: أصمتي كيف لأخي الأعزب الصغير يتزوج مطلقة .

أمي: كفي عن هذا الهراء، لاتنعتي إبنتي بالمطلقة .

نديم: عسى أن تُنعتي بهِ يوماً .

أحمد: أصمتن يكفي ثرثرة، بالنهاية هذا إختيار هاشم أخاكي،

والرد سيكون من أختي، أنتِ لا مكان لكِ بهذا القرار .

أصبح الضجيج يُعلى، وأنا أنظر لأشباحٍ تصرخ،

لم يكن معهم سوا جسدي أما قلبي وعقلي في الفناء،

في اليوم التالي .....

ذهبت زوجة أبي لعند أهلها لكي تقنعهم بتراجع عن هذا زواج،

لكن هاشم لم يقبل بأي طريقة جربتها،

عادت لنا غاضبة دخلت غرفتها فأغلقت الباب بقوة،علمنا بعد ذلك أن هاشم كان مُصراً على أختياره لنديم ولم تستطع أن تجلعه يعود عن قراره،

إنتهى كل شئ وأصبح كل شئ،

نديم تزوجت من هاشم وعاشت بأفضل حال،لم يتجرأ قلبي بالبوح إما أنا او لا

تغير كل شئ من أسوأ الى أسوأ، وانتهت الحوارات والنقاشات التي بداخلي،

انتهت عيناه وضحكته التي تملأُ قلبي بالأحاديث الطويلة طيلة الوقت، هو كان الخيار الصحيح لنديم أما أنا كان فكرة، خيال لم يكن حقيقة، كل الأحداث التي أصبحت بداخلي من مزج الخيال كانت كذبة، تمنيتُ وقتها أنني بحتُ بما داخلي، لكن لا بأس هو الأن زوج أختي لا يمكنني أن أتفوه بأي كلمة،

كان لي شئ جميل، كان الذاتُ والقلبُ،

كان محبوبي،

لم تنتهي مأساتي هكذا لم ينتهي شئ هكذا،

توفي أبي وذهب كل شئٍ معه،

فرحتنا وحزننا ذهبت مع أبي، المرضُ سيطر عليه، تعب جداً حتى أصابته جلطةً على الدماغ، توفي والدي في أعين الناس، ولكنه لم يمت في قلبي، رغم قساوة قلبه الا أنه رجلٌ عظيم،

ولم تكن الصدمة بهذه فقط، كل شئ يملكه أبي كان بإسم زوجته، خسرنا أبي وخسرنا أموالنا لم يتبقى لنا شئ،

ذهبت زوجة أبي هاربةً بالمال، أمي لم يمتليها السعادة من بعد هذا، كانت حزينة و بائسة، فهي خسرت كل شئ، قلبها مالها وسعادتها،

أما أنا بعد سنةٍ من وفاة والدي عدتُ لعملي الذي كنت متعلقةً بهِ،

عدتُ القوية، عاد كل شئ، وأصبح كل شئ هادئ، أختي تمتلك قلبي، وأمي تمتلك الحزن وأنا امتلك وظيفة أحلامي، ذهبت العصبية والصراخ والألم، فبقيَ البؤس في قلوبنا لا يخرج ألا حين أكون وحدي في غرفتي ليلاً وسلمى بين أحضاني، إنتهت قصة عائلة بائسة تدخل بهدوء وتخرج بهدوء، رغم أنها كانت مزعجة للغاية، كانت أمنيتي هي الهدوء الذي يرافق جميع أفراء أسرتي، لا الهدوء بعد فقدِ أحبتي.

تمت ...